التعليم الجامعي ودوره في تعزيز
مبدأ الوسطية بين الجامعيين

بقلم د. عبد القادر تومي
مدير مخبر التربية والابستيمولوجيا المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–

مقدمة:

من القضايا المستحدثة التي أصبحت تطرح علامات استفهام كثيرة وتحتاج إلى تسليط الضوء عليها بالبحث والدراسة، موضوع الأدوار التي تقوم بها الجامعات في الوطن العربي باعتبارها "منارات علم ومراكز تنوير تشع نورا وحكمة "، وباعتبار أن تطوّر المجتمعات الحديثة وتقدُّمها وازدهارها، يرتبط أساسا بما يصل إليه أداء الجامعات لوظائفها العلمية والأكاديمية، من مستوياتٍ عالية، في سلَّم التفوّق والتألق والإبداع في مجالات المعرفة المتنوعة، فهي تقوم بأدوار تعليمية وتربوية متنوعة، ويعتبر الطلبة الجامعيون الأمل المرتجى في كل امة، تعلق عليهم الآمال في التوعية والتنوير والبناء، ولما كانت الجامعة منارة علم، فلأن أحد أهدافها الرئيسة هو البحث العلمي، كطريق يستكشف الحقيقة، ومن أهداف البحث العلمي فيها تنمية الطالب الجامعي، بتمكينه من أن يمتلك ثروة بشرية علمية قادرة على القيام بعملية التنمية الشاملة في أي مجتمع. وواضح أن مفهوم التنمية الشاملة يستدعي ترابط الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية في المجتمع، ويؤكد هذا المفهوم تنمية الإنسان من حيث مهاراته وقيمه ومواقفه نحو الحياة، وطريقة تعامله مع المعطيات التي يعايشها روحيا وماديا.

وتمكين الطلبة من القيام بمسؤولياتهم في رسم معالم المجتمع الراشد، لا يتسنى لهم إلا بفضل الجهود التي يمارسها الأساتذة والباحثين من خلال أعمالهم وأبحاثهم العلمية الذي تحتويها الكتب والمجلات الأكاديمية.

ويحتل موضوع التعليم الجامعي مكانة متميزة في هذا العصر، وذلك نتيجة للوعي المتنامي بالدور العلمي للجامعات الذي ينمي المهارات ويعزز الكفاءات، والدور التربوي لها الذي يصون القيم الأخلاقية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، ويرسخ الفكر الوسطي الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

من هذا المنطلق بدت الحاجة إلى فهم الخدمة التي تقدمها المؤسسات الجامعية في سبيل تعزيز الوسطية أكثر من ضرورة خاصة في زمن أطراف الإفراط أحيانا والتفريط أحيانا أخرى.

ولعل الحديث عن واقع المؤسسات الأكاديمية، يدفعنا نحو إبراز ما يمكن أن تساهم فيه هذه الأخيرة في دفع عجلة التنمية المعرفية من جهة، وتعزيز المفاهيم الأخلاقية، والمبادئ السامية لدى الطالب القارئ من جهة أخرى.

ويأتي الاهتمام بهذا الموضوع من منطلق أن الأمة الإسلامية هي في أمس الحاجة إلى الفكر الوسطي خاصة وأنها مرت ولا تزال تمر بمخاض عسير وهي تبحث لنفسها عن انبعاث جديد يستمد روحه من ما كان عليه السلف الصالح من تخلق وتدين، ومن ما توصلت إليه المجتمعات الحديثة من تحضر في مجاله الايجابي.

وبما أننا نحن كأمة معنية بالمصالحة مع الذات ومع الأخر، وبالنظر إلى خصوصيات وضعنا وطبيعة ثقافتنا، نشعر أننا ستتحمل مسؤولية كبرى، ستلقى على كواهلنا، من أجل طرح رؤى وأطر جديدة في المجالات الأكاديمية تتلاءم وتتواءم مع الدور المرتقب وهو الدور العلمي الذي ينمي المهارات ويعزز الكفاءات، والدور التربوي الذي يصون القيم الأخلاقية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، ويرسخ الفكر الوسطي الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، كل ذلك بقصد اللحاق بالركب المتحضر وركوب قافلة التطور، والمشاركة الفعالة في صنع المستقبل بعيد عن العنف والصراع.

ومن هنا نجد أنفسنا ملزمين بتكثيف الجهود لمغالبة العنف والظلم، وحجز المكانة اللائقة بالأمة في كنف الأمن والسعادة، وانطلاقا من هذا الطرح سيظل سؤال الوسطية عرضا وتعزيزا يفرض نفسه بإلحاح:

فما هو الأدوار التربوية والأخلاقية التي تقوم بها الجامعات ومختلف المؤسسات العلمية في تثبيت مبدأ الوسطية؟

وكيف يعزز الأساتذة الجامعيون من الوسطية في أبحاثهم التي تحملها الكتب المجلات العلمية ومن خلال العليم الذي يمارسونه؟

أهمية الدراسة:

- ✓ تنبع الأهمية النظرية من قلة الدراسات التي تتناول حجم وطبيعة موضوع الوسطية في الوسط الأكاديمي من الناحية الكمية والنوعية.
- ✓ تكمن الأهمية البالغة لهذه الدراسة في لفت الانتباه إلى إبراز المكانة المتميزة للفكر الوسطي الذي ينبغي استثماره في بناء شخصية فكرية تستجيب لمبدأ التواصل والتعارف وتلاقح الأفكار بين الأمم.
- ✓ كما تكمن الأهمية في لفت انتباه جميع الجامعيين إلى ضرورة سلك اتجاه يتماشى وخصوصيات المجتمع المتوازن وذلك بالتركيز على الاعتدال والوسطية في التعاطي مع موضوعات المعرفة المختلفة.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى ما يلي :

- الكشف عن الدور الايجابي التي تقوم به مؤسسات التعليم في الجامعات الجزائرية.
- التأكيد على قاعدة الحوار كمنهج حياة تقتضيه السنن الكونية، في كل الأوساط الجامعية وبين الأساتذة والطلبة خصوصا

- توصيف دور الفكر الوسطي في ترسيخ وصيانة القيم الأخلاقية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع من خلال أعمال الأساتذة والباحثين.
- إبراز ما لمبدأ الوسطية من قيمة في تعزيز الحوار العلمي الفعال بين الشباب الجامعي.
- تحديد المسؤولية التي تقع على عاتق الباحثين في رسم معالم المجتمع الراشد.

منهج الدراسة:

ينتمي هذا البحث إلى البحوث الاستقصائية التي تعنى بدراسة واقع الأحداث والظواهر والآراء، وتحليلها وتفسيرها بهدف الوصول إلى استنتاجات مفيدة، إما لتصحيح الظاهرة أو تحديثها أو استكمالها أو تطويرها.

– التحليل

نحاول في هذه الورقة أن نقدم قراءة استقصائية لبعض محتويات البرامج التربوية في المؤسسات الجامعية، قصد الكشف عن مدى قربها أو بعدها عن الوسطية، كما تتناول معالم المنتجات العلمية من الكتب والمجلات التي تعمل على نشر الفكر النير، وترسيخ قيم الوسطية بعد ما عانت النخبة في الجزائر من الفترة السوداء حيث طالت أيادي الإرهاب الفئة المثقفة واستهدفت كل ما من شانه أن يدعو إلى لم الصف والتسامح مع الأخر، وبالتالي نشر الوعي الهادف في المجتمع، بعيدا عن الإفراط أو التفريط، وجمعا بين الأصالة والمعاصرة واعتمادا على الوسطية في فهم الواقع، وإيمانا بالانفتاح على الآخر، ومحاورته في صورة بناءة، ترتقي بقيمتي الفرد والمجتمع على حد سواء.

تساهم البحوث العلمية بشكل كبير في تقدم العلوم، وهي أدوات لاستكشاف وقراءة الواقع، يقوم بها رجال العلم الأكاديميون الذي نذروا أنفسهم لخدمة العلم والمجتمع. هذه البحوث تلقى اهتماما ودعما منقطع النظير في الدول الغربية، ويعتبرونه جوهر العمل الأكاديمي، ويتفرغ الأساتذة للقيام ببحوثهم العلمية من دون مضايقة أو استخفاف بعملهم، وتكون نتيجة ذلك قفزات علمية في شتى مجالات المعرفة.

أن دور الجامعة هو الحفاظ على التراث الحضاري ونقله من جيل لآخر، ومحاولة التوصل إلى الحقيقة من خلال العمل الدراسي الهادف الذي يدرس القيم الثابتة، وتنمية المهارات النقدية وأساليب التفكير والتحليل، ثم فحص الأمور اليومية التي تستقطب اهتمام العالم الخارجي بالمناقشة والبحث والدراسة لتدريب الطلاب على التعامل معها والتصدي للمشكلات التي سيواجهونها بعد التخرج باعتبارهم مواطنين في المجتمع.

فهي أي الجامعة بالتعليم تحافظ على التراث الحضاري وتنقله من جيل لآخر، وهي بالبحث العلمي تتقصى الحقائق وتحقق الكشف عنها وتحدد الطريقة المثلى لتوظيفها في خدمة المجتمع، وهي بالإنتاج الفكري للأساتذة بمضامينه الأخلاقية تنير الدروب، وترشد نحو شاطئ النجاة.

وقبل الحديث عن الوسطية في التعليم الجامعي، لا بد من فهم المصطلح ومعطياته، ومقتضياته.

مفهوم الوسطية:

الوسطية في اللغة:

الوسطية مصدر، يدل على التَّمكن في الوسط، وورد لفظ الوَسَط عن أهل اللغة بإطلاقات قد تتعدَّد في الدلالة، وتتَّحد في الغاية.

فأطلَقَ الوسط على ما كان بين طرفين مُتقابلين: أحدهما ممدوح، والآخر مذموم، كالجيد والرديء، وأطلق الوَسَط على الأجود بين جنسه، كوسط القلادة.

- قال ابن فارس: "الواو، والسين، والطاء بناءٌ صحيح، يدلُّ على العدل والنَّصَف، وأعدل الشيء، أوسطه ووسطه"، فالوسط هنا يراد به العدل، قال الشاعر:

لاَ تَذْهَبَنَّ فِي الأُمُورِ فُرَطَا
لاَ سْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ شَطَطَا
وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطَا[1]

الوسطية في الاصطلاح:

والوسطية اصطلاحًا: "سلوك محمود - مادي أو معنوي - يعصم صاحبه من الانزلاق إلى طرفين مُتقابلين - غالبًا - أو مُتفاوتين، تتجاذبهما رذيلتا الإفراط والتفريط، سواء في ميدان ديني أم دنيوي".

والمعنى الاصطلاحي يدور على الاعتدال، وتجنُّب الغلو والتقصير؛ قال ابن القيم: "ما أمر الله - عزَّ وجل - بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين"[2].

وسيتضح - إنْ شاء الله - من خلال استقراء بعض نُصُوص الكتاب والسنة: أنَّ الوسطيَّة هي الدين كله، بحيث يسوغ أنْ نقول: "الإسلام هو الوسطية ما دامت الوسطيَّة لا تخرج عن العدل، والخيار، والاستقامة، والاتزان، والقصد، وهل هذه إلاَّ المبادئ التي جاء الإسلام من أجلها، قال ابن القيم: "والدين كلُّه بين هذين الطرفين - التقصير والمجاوزة - بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه"[3].

المقصود بالوسطية في الفكر:

ونستخلص من هذا الشَّرح معنى دقيقًا، يجب أن يَعِيَه دعاة الوسطيَّة، في كل المجالات: في الدَّعوة، والاقتصاد، والسياسة، والأدب، والنقد، وهو العلاقة التجاذبيَّة بين الوسط وطرفيه؛ فالوسط شيء عزيز، يحتاج إلى جهد، وفقه، وعلم، وصبر، حتى ينتزع من طرفيه، ويسلَّ من متشابهاته، وفي ذلك من المعاناة والجَلَد والاصطبار ما يرتقي بصاحبه إلى ما يُمكن أن نسمِّيَه بـ "مقام الوسطية".

ويُمكن أن نضيف أنَّ لفظ الوسَط، قد يأتي بين طرفين محمودين، وتقومُ الدلالة هنا على الأخذ من كلِّ طرف بنصيب، دون امتناع الذهاب في كل طرف إلى أقصى مداه، ودون أن يعتديَ طرف على طرف، كالجمع بين العلم والعمل، أو بين الدِّين والعلم، وقد يلتمس

تغليب أحد الطَّرفين على الآخر بطلب شرعي لمصلحة راجحة؛ كالجمع بين طلب الدنيا والآخرة، مع تغليب جانب الآخرة؛ لاعتبار الدنيا مزرعة لها، وجسرًا إليها.

ويخلص الدكتور الحسين أيت سعيد، في كتابه "المرقون حول الوسطية"[4]، إلى أن للوسطيَّة إطلاقين لُغويين:

- "إطلاقًا مادِّيًّا حسيًّا، وهو كون الشيء في وسط له طرفان؛ كوسط الدار، وهذا يقع بين طرفين أو أطراف مُتقابلة.

- وإطلاقًا معنويًّا، وهو كون الشيء أفضل شيء، وأَخْيَره، وأعدله، وأجوده، وهذا يقع غالبًا بين ضدين مذمومين، متميزًا عنهما بأفضليته وجودته، وقد يكون له ضد واحد، كالعدل مع الظلم".

الوسطية في القرآن الكريم:

ورد لفظ الوسط بِمُشتقاته في القرآن الكريم في خمس آيات، تدور كلُّها حول الشيء الواقع بين طرفين، البعيد عن الغُلُوِّ والتقصير:

الآية الأولى:قوله – تعالى –: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[5]، وقد فسرها النَّبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: (الوسط: العدل)[6].

قال ابن جرير: "إنَّما وصفهم بأنَّهم وسط؛ لتوسُّطهم في الدِّين، فلا هم أهل غلو فيه – غلوَّ النصارى الذين غالوا بالتَّرهب، وقيلِهم في عيسى ما قالوا فيه – ولا هم أهل تقصير فيه – تقصير اليهود، الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به – ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه"[7].

وقال الزمخشري: "(وَسَطًا): أي: (خيارًا)، هي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء، أو عدولاً؛ لأنَّ الوسط عدل بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض"[8].

وقال ابن كثير: "ولما جعل الله هذه الأمَّة وسطًا، خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المفاهيم، وأوضح المذاهب"[9].

الآية الثانية: قوله – تعالى –: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى}[10]، قال ابن كثير: "والوسط: الخيار والأجود، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسطًا في قومه؛ أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصَّلاة الوسطى، التي هي أفضل الصَّلوات، وهي العصر"[11].

ويَفْصِل فيه قول النَّبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الخندق: ((حبسونا عن الصلاة الوسطى، صلاةِ العصر، حتى غابت الشمس))[12].

الآية الثالثة: قوله – تعالى –: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}[13] قال القرطبي: "هو منْزلة بين مَنْزلتين، ونِصْف بين طرفين"[14].

الآية الرابعة: قوله – تعالى –: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}[15]، قال الطَّبري: "هو خيرهم"[16]، وقال القرطبي: "أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم"[17]، وقال الألوسي: "أحسنهم وأرجحهم عقلاً ورأيًا، أو أوسطهم سنًّا"[18].

الوسطية في الدراسات في الدراسات الدينية:

تتعدد المؤسسات الأكاديمية التي تهتم بالدراسات الشرعية في الجزائر، بتعدد المعاهد والكليات المهتمة بالفكر الإسلامي، وتتفق في رد الاعتبار إلى ثقافة الوسطية التي غيبت في وقت مضى لأسباب عديدة ليس هذا مجال الحديث عنها[19] ومن المجلات الأكاديمية الرائدة في الفكر الوسطي نجد مجلة الموافقات التي يصدرها المهد العالي لأصول الدين بالجزائر. ومن خلالها عمل الأساتذة على نشر الفكر الوسطي في الكثير من أعدادها، وأصبح الباحثون يوجهون خطابات مبنية على التعقل والحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن. وقد قال الله –جل وعلا–:"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ"[20]، ومن هنا وجهنا –سبحانه– إلى أن نجادل المجادلة المقيدة بالأدب الإسلامي الرفيع، والمجادلة بالحق الساعية إليه؛ حيث قال:"وجادلهم بالتي هي أحسن"[21]، وقال:"وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[22]. كما أن الحوار يكون

أسلوباً نستخدمه داخل الأسر والمدارس من أجل تربية الصغار وتعليمهم فحسب، وإنما ينبغي أن يكون أسلوب حياة، يسود في الأسرة والجامعة. إن الحوار الحيوي للجميع، وإن غيابه عن حياتنا سوف يؤذي الجميع؛ وذلك لأن البديل سيئ جداً، وهو كثيراً ما يكون القهر والكبت والانعزال والأنانية، وإتباع الهوى وتصلب الذهن ومحدودية الرؤية، وإعجاب كل ذي رأي برأيه .إن الحوار الذي يربي فعلاً هو الحوار الجيد والعلمي والموضوعي والقائم على أسس أخلاقية جيدة. حين يتوفر الحوار الجيد والمديد والمستمر فإنه يولد، ويقتضي بطريقة غير مباشرة عدداً ممتازاً من الأفكار والمفاهيم والرؤى والمبادئ والعادات والسلوكات الصحيحة والرائدة. وإذا تساءلنا عن الشروط التي يجب توفرها من أجل حوار ناجح ومثمر أمكننا أن نعثر على الآتي:

1- الإيمان العميق بأن لكل إنسان أن يعبر عن ذاته، وأن يدافع عن قناعاته في إطار المبادئ الكبرى المجمع عليها، وإتاحة الفرصة للمرء كي يعبر عن قناعاته ومزاجه... كشرط جوهري لنمو الحياة العقلية والروحية، كما أنه مشروط لشعور الطفل بكرامته وإنسانيته.

2- حتى يصبح الحوار أسلوب حياة يجب أن نؤمن بأن الواحد منا مهما بلغ من التحصيل العلمي، ومهما كانت عقليته ممتازة فإنه في نهاية الأمر لا يستطيع أن يصدر إلا عن رؤية جانبية محدودة. وذكاء الجماعة أكبر من ذكاء الفرد. ومن خلال الحوار نستطيع معرفة رأي الجماعات والمجموعات، والاستفادة من أكبر قدر ممكن من الآراء.

3- من المهم حتى يصبح الحوار أسلوب حياة- أن نوطن أنفسنا لقبول النقد. فقد يوجه التلميذ في المدرسة أثناء الحوار انتقاداً لأسلوب التدريس، أو ينتقد عدم كفاية استخدام المدرس لوسائل الإيضاح. وكذلك يتعرض الأبوان في الأسرة إلى شيء من الاعتراض والمراجعة حول مجمل قراراتهما في إدارة شؤون الأسرة ومعالجة مشكلاتها. وحين نفقد روح التسامح والمرونة الذهنية المطلوبة لذلك فإننا سننظر إلى الحوار على أنه باب لإساءة الأدب من قبل الصغير مع الكبير، وسيكون البديل آنذاك هو التعسف والاستبداد.

حين نحاور الناس في الجامعات، وحين نعتمده في مجالسنا وإداراتنا ومؤسساتنا نحرز عدداً لا بأس به من النجاحات التربوية على الصعيد الفكري وعلى الصعيد العقلي، وأيضاً على الصعيد الاجتماعي.

من خلال الحوار الناجح والموضوعي والمستمر نتمكن من تنمية الحس النقدي لدى الأطفال في البيوت والمدارس. والحقيقة أن ما يتم من مراجعات ومجادلات بين المتحاورين يعد وسيلة مثالية للوصول إلى هذا الغرض.

لا يعني النقد اكتشاف السلبيات فحسب، بل يعني اكتشاف السلبيات واكتشاف مساحات الخير والحق والجمال في الأقوال والمواقف والعلاقات والأشياء.

حين يسمع الأطفال وجهات نظر متباينة ومتعددة في الموضوعات والقضايا المطروحة للنقاش، فإنه تنمو لديهم القدرة على المقارنة، والمقارنة —كما يقولون– هي أم العلوم. ومن خلال نمو المقارنة تتشكل رحابة عقلية جديدة لا يمكن بلوغها عن غير هذا السبيل.

حين ندير حوارتنا على نحو جيد فإننا من خلال الحلول الوسطى والآراء المعدَّلة والملقحة نشيع في حياتنا الرؤى المتدرجة، كما نشيع القابلية العقلية لإدراك ما في الأشياء من نسبية. وأعتقد أن تخفيف الاحتقان والتوتر الاجتماعي وكذلك تخفيف التوتر السائد في علاقاتنا مع المنافسين والخصوم على المستوى الدولي – يتطلب أن نؤسس في نفوس وعقول الصغار والكبار أن الخير في الناس، وكذلك الشر ليس مطلقاً؛ حيث لم يجعل الله -جل ثناؤه- الفضائل حكراً على أمة أو جيل أو مجتمع، كما أنه لم يجعل الرذائل كذلك. ويتطلب كذلك أن نؤسس في الأذهان أن هناك واجباً دون واجب وحراماً دون حرام وأذى دون أذى ونجاحاً دون نجاح وإخفاقاً دون إخفاق... وأعتقد أنه في زمان شديد التعقيد وكثير الغموض بات الأطفال –على نحو أخص– بحاجة إلى تربية تنمي لديهم فقه الموازنات، وهذا الفقه يقوم على عدد من المبادئ المهمة، منها:

من خلال الحوار بوصفه صبغة عامة للاتصال والمعايشة نتبادل رسالة عظيمة قائمة على نفسية الرخاء وعقلية السعة، حيث يوقن الجميع أن في إمكان المرء تحقيق ذاته،

والوصول إلى أهدافه وبلورة آرائه على الرغم من إتاحته الفرصة للآخرين بأن ينقدوه ويجادلوه، ويعترضوا على بعض ما يقول.

أما حين تستوطن الذهن فكرة التفوق والسيادة فسيُستَوحش كل من لا يقف موقف التابع وستبدو أية محاولة للتمايز من قبيل التمرد الذي لا يستوجب غير القمع، وهذا ما تستشعره الإمبراطوريات والهويات المتغطرسة ساعة تمددها خارج المكان.

إن الذات إذا ما استشعرت تحملها عبء تبليغ رسالة ما أو نهوضها بعملية "تحضير" العالم واستقطاب أطرافه، فإن ذلك يعني الحكم مسبقاً على الآخر بشكل سلبي والمصادرة على اختياراته، ومن ثم تنظيم التعامل معه على نحو إكراهي لا يقبل التفاوض.

إنها لمفارقة أن تستبطن مثل هذا التفكير قُوَى وكيانات معاصرة تدعي الحضارة والحداثة.

والحقيقة أن تلك حالة تتبادل مفارقاتها كل من الذات والآخر.

إن الآخر هو المختلف، وللاختلاف مستويات أقواها ما كان حضارياً تتمايز في أطره عناصر الدين واللغة والثقافة والجغرافيا لتميز هذا الطرف عن ذلك.

وعلى الرغم من أن الشعور بالخصوصية هو أمر طبيعي، وأن ثنائية الذات والآخر قد تظل حالة عادية ولا تنطوي على أي استفزاز ولا تعبر بمفرداتها عن إشكال اجتماعي حاد، إلاّ أن التأزم يرتبط في العادة بظواهر التحدي واختلال الموازين بين أطراف العلاقة. ففي مجالنا العربي الإسلامي لعبت الظاهرة الاستعمارية وما صاحبها من سيطرة واستتباع دوراً كبيراً في بلورة مواقف ضدية تجسدت بحركات التحرر وأنشطة الممانعة ودعاوي الهوية التي شكلت في صورتها الإسلامية أقصى حالات جدل الذات والآخر.

ولكي نعرف طبيعة الموقف الإسلامي من الآخر، علينا أن نبدأ بمعرفة المدركات التالية:

1- وحدة النوع الإنساني:

إن تصوير طرف طرفاً آخر على نحو سيء أو مشين يعيق، ولا شك، أي تأسيس لعلاقة صحية بينهما.

والإسلام إذ أوضح بجلاء وحدة الأصل والنوع " كلكم لآدم وآدم من تراب"[23] فإن القرآن ما فتئ يوجه خطابه إلى " الإنسان" و" الناس" و" بني آدم" تأكيداً للمعنى المشار إليه. وبناء على ذلك تكرّس مبدأ التساوي وتم الإعلان بقوة عن قيمة التكريم { ولقد كرّمنا بني آدم }[24]حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهض واقفاً حين تمر من أمامه جنازة يهودي ويرّد على من يبدي استغرابه بالقول: أليست نفساً[25]. وفي ضوء ذلك تبلورت سياسة في التعامل قوامها احترام الآدمية على وجه الإطلاق، وهو ما عبّر عنه الإمام علي حين أوصى واليه على مصر مالك الأشتر بالقول: و"اعلم أن الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق"[26].

ولا شك أن وحدة العنصر وشراكة الخلق تمثل قيمة إنسانية وقاعدة تفسيرية ومن ثمَّ مدخلاً أساسياً في بناء منهجية التعامل مع الآخر.

2- ظاهرة الاختلاف:

وإذا كانت التعددية بمعناها الديني تكتسب شرعيتها بالشرط التاريخي { لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}[27] ،فإن ذلك لايعني رفض المختلف وإلغاء حريته الدينية، فإذا كان لا يُقبل في مرحلة الختم النبوي غير الإسلام ديناً (سورة آل عمران، الآية 75)، فعدم القبول على صعيد الإبراء الأخروي للذمة شيء وإمكانية الوجود والتعايش داخل الأمة الخاتمة أو خارجها شيء آخر، ذلك أن المبدأ هو { فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر }[28]، والحكم على الصعيد الإيماني يظل مُعلقاً، الأمر الذي لا يجعل من المخالفة مبرراً لدكتاتورية اليقين، ومن ثم ليس على المتدين بالإسلام غير الاعتراف بالآخر وقبول التعايش معه على ماهو عليه {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إنَّ الله على كل شيء شهيد}[29]، {أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون}[30].

3- نسبية الحقيقة:

نظراً لمحدودية القطع " الدلالي" في نصوص الكتاب والقطع " الورودي" و" الدلالي" في المروي من السُّنة، تظل " ثوابت" الإسلام تبعاً لذلك محدودة، فيما تتسع مساحات " الفراغ التشريعي " والمسائل المسكوت عنها والتي يظل الحكم أو الإفتاء في شأنها أمراً ظنياً لا يحمل صفة الجزم أو الإلزام المطلق.

إن الحقيقة - بما فيها الفكرية - يمكن أن تتوزع وقد نجد أجزاء منها هنا وأجزاء منها هناك، وليس من الحتم أن نحوز عليها كاملة نحن المسلمين لندعي بعد ذلك بأنا وحدنا الذين نملك المشروع الأكمل والأمثل فيما الواقع البشري بتواريخه ومشاهده المختلفة وتعقيداته وتعدد مستوياته هو أكبر من أن يُختزل في صيغة واحدة(31).

بل إن النسبية قد تطال الحقيقة إذا ما ميزنا بين " صدقها " من جهة" و"صلاحيتها" من جهة أخرى. فبعض الأفكار أو النظريات أو الصيغ قد تكون صادقة حتى بالمعنى الشرعي لكنها قد تفقد صلاحيتها في لحظة أو مكان ويصير من العبث العمل على فرضها في حالة الآخرين. فالفكرة الميتة -كما يقول مالك بن نبي - هي فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن أنموذجها المثالي ولم تعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي وبالتالي هي فكرة فاقدة للتوازن ولايمكن تعاطيها في غير مكانها المناسب.

كما أن الفكرة الواحدة قد تتباين فاعليتها الاجتماعية في المجتمع الواحد عبر ظرفين مختلفين، ففكرة " التقدم" مثلاً كان لها دور مؤثر في ثقافة المجتمع الأوروبي لكونها مؤيدة بالنظرية الوضعية " لأوجست كونت " وبنظرية التطور لداروين لكنها أصيبت بصدمة في القرن العشرين حين فقد إشعاعها فاعليته ولم يعد له فيما بعد من تأثير(32).

قواعد التعامل مع الآخر في المنظور الإسلامي.

استناداً إلى الرؤية الإسلامية في تحديد ماهية الآخر تبرز مجموعة من القواعد التي تحكم علاقة المسلم بغيره، في مقدمتها:

أ) **مبدأ التعايش السلمي:** كلمة الإسلام مشتقة من الجذر اللغوي الذي اشتقت منه كلمات السِلم والسَلم والسلام والسلامة {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً}[33]. وقد صور الله هدايته في القرآن { يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام}[34].

والسلام من أسماء الله الحسنى، والجنة " دار السلام ". وأفضل ما ندعو به لمرسل أو نبي قولنا " عليه السلام ". كما أن عبارة " السلام عليكم " هي أحسن تحية يحيي بها بعضنا البعض.

وإذا كانت السلام كمفردة وردت بمشتقاتها في أكثر من مائة آية، فلم ترد مفردة الحرب في القرآن إلاّ مرات معدودة[35].

حتى الحرب المشروعة تظل في تصويرها القرآني مكروهة {كتب عليكم القتال وهو كره لكم }[36] ومن ثم هي لا تُشن إلاّ للضرورة التي ليس من ضمنها إشباع هاجس القوة أو حب التحكم أو رغبة الاستحواذ، بل هي في هذه الاتجاهات محرمة على الإطلاق {ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين}[37]، {وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا}[38].

ثم إن الحرب المشروعة قُيدت بجملة من الأحكام، كحرمة قتل غير المحاربين من النساء والولدان والشيوخ ورجال الدين والمرضى، أو حرمة الانتقام الجماعي والتمثيل بالجثث والتجويع والإضماء وتخريب الديار وحرق الأشجار لغير ما ضرورة حربية[39].

والقتال الشرعي لم يُسوغ استمراره إذا ما تنادى الخصم إلى إيقافه { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها }[40] ومن ثم فإنه من غير الجائز مقاتلة من ألقى السلم صادقاً ورد الغصب وكفَّ عن الحرب[41] { يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة }[42] { وكفى الله المؤمنين القتال}[43].

كل ذلك ليؤكد أن الأصل هو التعايش، وأن لا معنى للتحدث عن دعوة إسلامية تتم تحت ضغط السلام، فالله لو أراد هداية الخلق لهداهم لكنه تركهم وما يشاءون {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا

مؤمنين}[44] لهذا تحدث بعض العلماء كابن الصلاح عن عدم جواز قتل الكفار باعتبار أن الله لم يخلق الخلق ليُقتلوا وإنما أبيح قتلهم لعارض ضرر وُجد منهم وليس جزاءً على كفرهم، ثم إن الدنيا ليست على أية حال دار جزاء[45]، ولهذا حُرم العدوان بإطلاق.

ب) معرفة الآخر والاعتراف به: حين يتوزع الناس بين شعوب وقبائل يظل المقصد هو التعارف: {وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا}[46]. ولا تبرز أهمية التعارف دون استصحاب مدركات وحدة الخلق وحقيقة الاختلاف ونسبية الحقيقة. فالتعارف في ظل هذه المسلمات يُنتج بالضرورة اعترافاً، فيما يظل التعرف في ظل سيكولوجية تختزن التفاضل والاستعلاء قاصراً عن بلوغ حالة التعارف ناهيك عن الاعتراف. فالنازي الذي يستبد بعرقيته والإسرائيلي الذي يعتقد بأنه المفضل على بقية العباد لا يجد عنده من السعة والموضوعية ما يدفعه إلى الإقرار بأي امتياز يمكن أن يحوزه الآخر. وهذا ما يمكن أن يقع فيه بعض المسلمين عندما يقرأون قوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}[47] على غير معناها الكامل والصحيح.

إن الإسلام " دعوة" تنطوي على نشاط تعريفي حر، ولا تسمح أصولها بأن تتحول إلى دعاية" تقوم على استلاب الذهن والسيطرة السحرية، فالحرية شرط لأي استجابة ولا استجابة في ظل الإكراه. وفي هذا نفي لمقولة التعارض التي يتوهمها الانثروبولوجي الفرنسي " ليفي ستراوس" حين يتساءل عن الكيفية التي سيوفق فيها المسلمون بين ظاهرة التعددية وفكرة العالمية[48]، وكأنه لا يدرك بأن "العالمية" في منظورها الإسلامي لا تعني "العولمة" "Globalisation"، لأنه لا وجود في إطار مشروعها لأي برنامج يقوم على الإدماج، فالعقائد وبخاصة الدينية تمثل يقيناً عند أصحابها، ومن العبث التفكير بتغييرها بوسائل القهر والإكراه، كما أنه من غير المنطقي – في حالة الاعتقاد بفسادها أو بطلانها – أن يتم اللجوء إلى مقاطعة أصحابها أو إقصائهم أو قفل أبواب التواصل معهم، ذلك أن التعارف الذي يحث عليه الإسلام لا يضع التغيير أو الاحتواء غاية ولا

شرطاً طالما أن ما يجمع الإنسان مع نظيره الإنسان في هذه الدنيا هو أكثر بكثير مما يفرقه عنه.

إن التربية الإسلامية توجه المسلم نحو الاعتراف بالآخر حتى في ظل الحالة التي يسود فيها "نظام" الآخر، كما في لحظة دخول المسلم بلداً أجنبياً سائحاً أو مقيماً، حيث يتوجب عليه الالتزام بقوانين ذلك البلد واحترام مقرراته وضوابطه ونظامه العام، وهو ما عالجه بعض المعاصرين من العلماء تحت باب " فقه الاغتراب" حتى أن بعضهم اعتبر سمة الدخول " الفيزا" بمثابة " عهد" يترتب بموجبها الإيفاء بما يرد فيها من إلزامات مقبولة، لذلك " لا تجوز السرقة من أموالهم الخاصة والعامة وكذا إتلافها إذا كان ذلك يسيء إلى سمعة المسلم أو المسلمين بشكل عام، وكذا لا يجوز إذا لم يكن كذلك ولكن عُدَّ غدراً ونقضاً للأمان الضمني المعطى لهم حين طلب رخصة الدخول في بلادهم أو طلب رخصة الإقامة فيها لحرمة الغدر ونقض الأمان بالنسبة إلى كل أحد[49].

ووصف سليم العوا الفتاوى الداعية إلى العزلة بقصر الفهم والجهل بأحكام السياسة الشرعية والمقاصد وأحكام الإقامة في دول غير المسلمين[50].

وفي كل هذا يتبنى الاتجاه الفقهي المتجدد موقفاً مرناً لا يرفض التكيف ضمن سياقات الآخر حين لا يعني ذلك الذوبان أو التنازل عن الخصوصية ، وبهذا تتكشف أمامنا سعة مبدأ الاعتراف بالآخر.

والحقيقة أن البدء بالمعرفة يمثل مدخلاً طيباً للتواصل ثم التفاهم الذي لا يمكن نسجه في ظل الجهل أو سياسات التجاهل.

لقد ثمن المسلمون منجزات الآخر وهم يترجمون أمهات الفكر اليوناني حتى أنهم لم يترددوا في منح " أرسطو " لقب" المعلم الأول "، فيما اكتفوا بتلقيب فيلسوفهم الفارابي بـ " المعلم الثاني ". ولعل العديد من مناهج التعليم العربية والإسلامية لم تألُ جهداً في إعطاء مساحات واسعة لحضارة الآخر، سيما الغربية منها، ولم تكن أسماء أرسطو" و"أفلاطون" و"ونيوتن " و"اينشتاين" و"جون ديوي"و"توينبي" وغيرهم من أعلام

المعرفة والعلم والحضارة في الغرب، إلاّ نماذج لما تحفل به المناهج المذكورة، فيما لم تفعل مثل ذلك مناهج التعليم الغربية التي أغفلت أسماء العشرات من العلماء العرب والمسلمين ممن لهم فضل على الحضارة الغربية نفسها، كالبيروني وجابر بن حيان وابن سينا والخوارزمي وابن الهيثم وابن النفيس، وعشرات ممن سُجل له قصب السبق في هذا الحقل أو ذاك، الأمر الذي يكشف عن مدى ما تنطوي عليه تلك المناهج من جهل أو تجاهل[51].

إنه من الصعب التحدث عن تفاهم بين الحضارات ما لم يتم التخلص من المواقف التي تحاول تهميش الآخر وازدراء ثقافته والاستنكاف عن الاعتراف له بالفضل المستحق. لهذا يمكن القول بأن التواضع والتقدير واتخاذ المواقف التصحيحية هي سبل ضرورية لتحقيق التفاهم المطلوب.

ومن هنا، وضمن هذا السياق، ثمة ملاحظة علينا أن ننبه إليها، وهي أنه إذا كان عالمنا العربي الإسلامي ما زال يعيش تحت ضغط الآخر، وضمن خرائط استراتيجياته، إلاّ أن ذلك لا ينبغي أن يدعنا ننكفئ أسرى الهواجس، تستغرقنا نظرية المؤامرة وننسى مهمة التحري عن أمراضنا الداخلية ونذهل عن واجب نقد الذات. فمثلاً حين توصي الولايات المتحدة الأمريكية بعض دول العالم العربي الإسلامي بأهمية أن يُعاد النظر في بعض المناهج الدراسية بحجة احتوائها على ما يثير الحمية ويبعث على العنف، هي بلا شك توصية تعبر عن تدخل سافر يبرر الاستياء ورد الفعل الغاضب، إلا أن ذلك لا يبرر الانصراف عن استثمار المناسبة والذي يمكن أن يأخذ أكثر من اتجاه:

– في اتجاه العمل على مراجعة ما قد نؤمن به فعلاً بأنه من العيوب أو النواقص في مناهجنا، وأن نبادر إلى التنقية مما نراه فيها من الأفكار الميتة والاتجاهات السلبية الضارة، ثم الإغناء بما هو حيوي وأصيل ويعكس روح التجديد.

وفي اتجاه آخر، يمكن التحرك نحو تقديم توصيات مقابلة توضح أوجه الجهل وعناصر التشويه والتحيز التي تطفح بها المناهج الغربية بشكل عام، لا سيما وأن بحوثاً منجزة كشفت أوجه ما تنطوي عليه تلك المناهج من تحيز وتشويه.

الوسطية في الدراسات الفلسفية:

اما فلسفيا فقد سعى اساتذة الفلسفة إلى زرع الفكر الفلسفي الوسطي وفي المقابل نقد كل افراط او تفريط خاصة في ما يتعلق بالمرحلة السابقة حيث شهد القرن الماضي حربين كونيتين، كما شهد تقدما هائلا في العلم والتقنية لم يسبق له نظير، تحققت فيه آمال واسعة، وأخفقت أخرى، كما شهد ويشهد قرننا هذا كوارث بيئية ورعبا من تطبيقات العلم، وعظم عدد السكان في العالم، ونمو الثروات، وأخذ الناس يتغنون بالديمقراطية، ويسلمون بنجاعتها، كما ظلت نظم كثيرة تثبّت الطغيان، وتقهر الإنسان، بجانب الرفاهية والغنى والليبرالية، تآكلت القيم والتقاليد، والاعتقادات، وساد في الآداب والفنون لون من اللايقين والعدمية، واختفاء المعنى، فأصبح الكلام لا يحمل معنى يمكن الإمساك به، والاطمئنان إليه، وأصبحت اللغة عالما يسجن فيه الإنسان ويموت، ففي هذا التذبذب والتناقض، وقتل القيم، واغتيال العقل، وقهر المستضعفين، والعدوان على الثقافات الهشة ماذا يمكن أن يكون حكمة، أو مثالا، أو معنى؟ عاش القرن الماضي الفاشستية، والنازية، والاستعمار، والماركسية، والرأسمالية، وثورات المستعبدين، وصراعا مريرا باردا أو حارا بين قطبين، وبناء جدار برلين، ثم اختفى القطب الثاني، وذهب غبارا في التاريخ، وظن الآخر أن التاريخ قد انتهى، وأن الرأسمالية أضحت أبدية، وذهب آخرون إلى أن صراع الحضارات وإيقاد نارها أمر حتمي، ولابد من صنع عدو جديد يصارعونه حضاريا للقضاء عليه حتى لا تقوم له قائمة، ولا يرى نورا وهو العالم الإسلامي والصيني، فاشتعلت حروب باسم الإرهاب، ودمرت العراق، وما تزال فلسطين تدمر وتقهر، وتذبح فيها الأطفال، وتشن على أفغانستان نيران تنال الأبرياء في ديارهم، تجنّد لها الحلف الأطلسي ليساعد الولايات المتحدة على قهر الشعوب، فهل في هذا السبيل

كله من حكمة، وماذا تستطيع أن تقدم، فهل تقوى على أن تهيئ للناس سفينة يمتطونها ليتخذوا لهم سبيلا بين أمواج هذا البحر المتلاطم الأمواج، أم أنها تغيب أضواؤها وأشرعتها، ومحركاتها لتدع هؤلاء الناس تتجاذبهم الأمواج حيث اتجهت ساروا، لا حيلة لهم في قيادة السفينة ولا قوة؟

يعتقد الذين يحبون الفلسفة، ويتصورونها أنها تقود إلى الحكمة، وهي أن ترشد إلى أفضل طريق لحياة الإنسان، وإلى أفضل مكانة يتمكّن بها الإنسان في الكون، فتلك الغاية القصوى منها ومن حبها، لأنها تمدك برؤية عن مكانتك في العالم، وبرؤية عن حياة فضلى تحياها، فهي تصور نظري، وأخلاقي عملي أيضا(52).

الفلسفة في القرن العشرين يبدو أنها ابتعدت عن كل شيء اعتبر قديما حكمة، فأنت ترى في مسرح الفلسفة الغربية تيارا أنجلو أمريكيا يقوم على تفكير عقلي استدلالي جافّ يكاد يقتصر على البحث في معاني الألفاظ وتقليبها ظهرا على بطن، وتحليل لا يقف عند حدّ إلا حدّ الحس أو الصورة المنطقية المجردة، بجانبه تقليد آخر يقوم على الاستعارة، وعلى طوفان من البلاغة في أوربا سوى بريطانيا.

وكلا هذين الاتجاهين فيما يرى " أنطوني أوهير " يقوّض الحكمة ولا يقيمها، سواء كان ذلك بشعور وقصد أو عن إهمال، فأفسد على الناس الحكمة في بريطانيا " برتراند رسّل "، ورأى أن الأداة المثالية للتحليل والتفكير إنما هي المنطق الصوري كما رآه هو والفيلسوف الرياضي الألماني " فريجة قطلوب"، وبهذه الأداة تصبح الفلسفة ذات صرامة ودقة كصرامة العلم ودقته، وأصبح ذلك نموذجا(53) يتبع، وباتت الفلسفة نوعا من العلم نفسه في منهجها، وفي نتائجها، فأنت إذا أخذت في قراءة صفحات المجلة الفلسفية أو العقل(54) فإنك ترى كمّا هائلا من الرموز والعلامات والأرقام، قيلت لتأويلات متعددة لا تكاد تفهم من طرف الجميع(55).

الوسطية في الدراسات التاريخية:

يسعى المؤرخون في الجزائر على ضوء كتاباتهم ومنهم أبو القاسم سعد الله إلى قراءة التاريخ قراءة علمية موضوعية بعيد عن التزييف الفرنسي لها أو الطرح الإديولوجي من زاوية أخرى ومن المجلات التي تهتم بالدراسات التاريخية في الجزائر وتجمع كتابات بعض الأكاديميين نجد مجلة "المصادر"(56) وهي مجلة علمية اتخذت من الموضوعية والدقة العلمية، والاعتدال في الطرح منهجا لخطها تتقصى الحقيقة التاريخية حيث ما كانت وتفحص الوثائق الخاصة بحرب التحرير الجزائرية، دون انحياز إيديولوجي بل تكشف الوقائع كما حدثت لا كما يصورها المؤرخون الفرنسيون الذين زيفوا كثيرا من القضايا التاريخية ومن هنا يتكئ عليها الباحثون في الدراسات التاريخية الخاصة بالجزائر، ومن ابرز كتابها كبير المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله الذي استطاع بكتاباته الموضوعية أن يكشف جميع فضائح فرنسا في الجزائر من خلال أعمال الإبادة والتقتيل الجماعي. والاستخدامات غير القانونية لمختلف الأسلحة المحرمة دوليا التي تستنكرها الأعراف والقوانين الدولية ويعرف جميع الأحرار في العالم أن سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وأساليبه القمعية في مواجهة الثورة الجزائرية لم ترع في مجملها أي قانون من قوانين الحرب الدولية ولا حتى القوانين الإنسانية وفي مقدمتها اتفاقية جنيف التي أمضتها دول عديدة والتي جاءت لتحد من وحشية الحرب وتوجب على السلطات العسكرية الالتزام بالقوانين والمعاملات الإنسانية والرفق بأسرى الحرب و الموقوفين المدنيين ويبدو أن تلك القوانين والاتفاقيات كانت موجهة للجنس الأبيض فيما بينهم ودون سواهم. هذا ولم تكن فرنسا آنذاك تؤمن حتى بالمفاوضات بل هي كان رد"**فرانسوا ميتيران**" وزير داخلية فرنسا آنذاك، يوم 7 نوفمبر 1954م بقوله: " ان المفاوضات الوحيدة هي الحرب "(57)

وخلافا للتعنت الفرنسي الذي تواصل في زمن العولمة بعدم اعترافها بحقوق الجزائريين تسعى المجلات العلمية إلى التعامل بعدم استخدام العنف الفكري بل وتلتزم بالوسطية في

الطرح رغم تأثر الهوية التاريخية للشعوب بما تفرضه مقتضيات العولمة، التي تفرض تفسيرا جديدا للتاريخ يتناسب مع أطروحات العولمة(58) وبديهي أن يتأثر التاريخ العربي والإسلامي لرياح العولمة العاتية في الوقت الذي لم يصف المؤرخ العربي معركته مع التاريخ الاستعماري الذي مازال يتبجح بالدور الحضاري والتعميري للمحتل اعتمادا على الأكاذيب والتحريفات التي تضمنتها بعض الكتابات التاريخية، وإذا كان التاريخ الاستعماري قد عمل على تشويه الهوية الوطنية للشعوب بعد ما تمكن من اختراقها، هاهو التاريخ الكوني الذي تحمله العولمة يحاول تجاوز هذه الهويات وإلغاء خصوصياتها. واعتقد انه سينجح في مهامه مادام المثقف العربي لا يزال قابعا في الهامش، والمستهلك لمنتج الأخر فضلا عن صراعه مع ذاته لتحقيق هويته وبلورته لنظرته للمستقبل. وسيستقبله الغرب بهذه الصورة المزيفة لأن تأثير الإعلام وقوة وسرعة نفاذه لا يخفى على أحد."(59)

فهاهو الصراع الإسرائيلي يصور إعلاميا على انه نزاع وليس صراعا حضاريا حقيقيا بينما يقوم الإعلام الإسرائيلي والإعلام الغربي بتصويره نزاعا على ارض بين دولتين بعدما أخرجت أطرافا أخرى(60) من حلبة الصراع.

فنحن المسلمين كثيراً ما شُوهت صورتنا في مرآة الغرب ولا تزال، منذ الحروب الصليبية، ففي نص للرحالة الألماني" يوليوس أو يتنغ " يشبه فيه العرب بالإبل(61)، ولا غرابة بعد ذلك من أن تُطمس الكثير من معالم الحضارة الإسلامية وينال التشويه حتى شخصياتنا الدينية.

وحتى نحن لم نكن بمبرئين من تعسف التناول والانحياز حيث لم يفتأ البعض منا يكتب عن الحضارة الغربية بشكل تجزيئي فلا يستحضر إلاّ معايبها وينسى أن لها أوجهاً أخرى إيجابية.

وكذالك من غير الصحيح أن تصف جماعة نفسها من خلال مواصفات نموذجها المتعالي متخطية بذلك واقعها الفعلي الذي قد لا يتسق مع ذلك النموذج، كما نفعل

نحن حين نتبجح بقيمنا ونتباهى بماضينا في لحظة قد نكون فيها بعيدين عن تلكم القيم وذلك الماضي.

ويفترض علينا حين نشرع في تحليل ظاهرة أو واقع سلبي يعيشه الآخر أن لا ننسى ما نعيشه نحن من ظواهر أو وقائع سلبية مماثلة، مثلما يجب على الآخر حين يوجه سهام اتهاماته لنا بالتعصب أو العنف أو الإرهاب أن لا ينسى بأن له سجلاً حافلاً في مثل هذه السلوكيات التي لا دين لها في الأصل ولا قومية ولا أوطان. وأن لا يختزل الآخر في صورة واحدة استناداً إلى استثناءات بارزة أو غير بارزة، أو بناء على عدد من الحالات الشاذة أو المنفردة إنما يمثل تغييباً للصورة الكلية.

كما يجب التمييز بين القاعدة والاستثناء، وليس من الأمانة أن يُعمم سلوك جماعة أو فئة ضمن حضارة معينة ثم يُنسب ذلك السلوك إلى مجمل تلك الحضارة، كما يفعل الغرب حين ينسب بعض أعمال التطرف وجرائم العنف التي يمارسها نفر من المسلمين إلى جملة المسلمين وربما إلى الإسلام نفسه، أو كما نفعل نحن حين نهاجم طغيان القوة في الغرب وننسى أن ثمة أصوات في داخله تقف ضد كثير من الحركات والسياسات المؤسسة لذلكم الطغيان[62]

وينبغي أن نرى الآخر متغيراً أو متطوراً دون التوقف عند صورته النمطية: إن تاريخ الأفكار والجماعات يشهد على أن صيرورة كل هوية أو ثقافة هو الانفتاح على الهويات والثقافات الأخرى، فإذا كان الموقف الغربي من المسلمين قد بدأ بعد سقوط الأندلس شديد العدائية، واستمر كذلك أثناء سجلات الحروب الصليبية وخلال مراحل الاستعمار والتبعية، إلاّ أن ضفاف الغرب لم تُعدم منصفاً يتحدث عن الإسلام والمسلمين بنزاهة وإيجابية، فهذا "جوستاف لوبون" ينصف المسلمين في كتابه " حضارة العرب" وهذه المستشرقة الألمانية" سيجريد هو نكه " تؤكد " فضل العرب على أوربا[63] " وتكتب العديد من الكتابات في هذا الموضوع، شأنها شأن مواطنتها " أنا ماري شيمل " التي بذلت جهداً كبيراً في نقل صورة طيبة عن الإسلام لقارئها الأوربي، وكثير غير

هؤلاء فعل مثل ذلك، بل إن الغرب الديني عرف تحولاً غير مسبوق عندما أصدر المجمع الكنسي التابع للفاتيكان في العام 1965م وثيقة توضيحية تحدث فيها عن المسلمين بشكل إيجابي، ومما جاء فيها: " إن الكنيسة تنظر بكل تقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي الدائم الرحمن الرحيم والجبار المقتدر خالق السماوات والأرض والذي تكلم إلى البشر. إنهم أي المسلمين يحاولون أن يخضعوا بكل أرواحهم لأوامر الله حتى ولو كانت مخبوءة في ضمير الغيب، كما خضع لأوامر الله من قبل إبراهيم الذي يتعلق به المسلمون أيضاً وعن طيب خاطر. وعلى الرغم من أنهم لا يعترفون بيسوع كإله إلاّ أنهم يبجلونه ويعظمونه كنبي كما يعظمون أمه العذراء مريم ويبتهلون إليها أحياناً بكل تقى وورع، وعلاوة على ذلك فإنهم يؤمنون بالآخرة مثلنا وينتظرون يوم الحساب حيث يبعث الله الناس من قبورهم لكي يحاسبهم على أعمالهم، كما أنهم يكنون كل التقدير للحياة الأخلاقية الفاضلة ويعبدون الله عن طريق الصلاة والزكاة والصيام"[64].

إنه لا يصح أن نُسقط من توقعاتنا إمكانية أن يصحح الآخر من مواقفة أو أن يخضع في لحظة إلى ما تُفيد به الحقيقة { بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون }[65]

الخلاصة:

إن الرسالة التي ينبغي تكريسها خاصة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وقضايا الفلسفة لا بد أن تحاور أسرار الواقع وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور العلمي في تآلف وتناسب بين العقل والتجريب، والفكر والواقع.

وتؤكد على قاعدة الحوار كمنهج حياة تقتضيه السنن الكونية، وتبرز التوافق بين الحكمة والشريعة نافية الفصل أو الصدام بينهما، وتجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الواقع، مع البعد الكامل عن الإفراط والتفريط، وتعمل على ترسيخ وصيانة القيم الأخلاقية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع. وتؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية، وتسعى إلى الموازنة بين

العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، باستنهاض همم الباحثين، وشحذ قرائحهم وتوجيههم إلى ميدان استخدام الحكمة، وفق شعار " كانط " التنويري " كن شجاعا واستخدم عقلك " ابتغاء الانتقال من مرحلة القصور العقلي إلى مرحلة بزوغ سن الرشد، حيث فعالية الفكر، والتجسيد العقلاني، والسلوك الايجابي.

إنّ الجامعات هي من أهم المؤسسات المؤثّرة إيجاباً أو سلباً، في حركة التنمية الاجتماعية، والحافز القويُّ إلى الارتقاء في جميع المجالات، ولا فضل للباحثين إلا بما يقدمونه لمجتمعاتهم ولبيئاتهم، من خدمات متميّزة، تؤثر تأثيراً مباشراً، قويّاً ونافذاً، وفاعلاً، في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وبما يحدثونه من تغييراتٍ عميقةٍ في علاقات التفاعل بينهم وبين المحيط الاقتصادي والبيئة الاجتماعية، بالقدر الذي يؤدّي إلى تعميق مجرى التقدّم الشامل في حياة الفرد والجماعة، بتوظيف الحوار العقلاني الهادئ، والنقد البناء دون مصادرة الرأي الآخر.

لقد أنزل الله على نبيه الإسلام الذي يتميز عن غيره بكثير من الخصائص ومنها منهج الوسطية في كل شيء – في التصور والإعتقاد والتعبد والتنسك والأخلاق والتصوف والسلوك والمعاملة والتشريع... فكان لاشتماله على هذه الخصائص منهجا عالميا لا يضاهيه نظام في العالم بأسره.

إن الأدوار المنشودة للمؤسسات الأكاديمية هي تعزيز مبدأ الوسطية في التعليم الجامعي التي تنظر بكل حكمة إلى السلوك الإنساني المتزن الذي يتفهم الأنا قبل الأخر، والتأكيد على قاعدة الحوار كمنهج حياة تقتضيه السنن الكونية كما أن دور الفكر الوسطي في أي مجتمع يعمل على ترسيخ وصيانة القيم الأخلاقية على مستوى الفرد المثالي والأسرة المتوازنة والمجتمع الراشد.

فلأجل هذا يجب أن ننشد في واقعنا التعليمي الفكر الوسطي أي الفكر الذي تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة الكاملة للإنسان وللحياة، والنظرة التي تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط بعيدا عن الغلو والتقصير.

الهوامش:

[1]- ابن عبد البربهجة المجالس وأنس المجالس،: (218/1).

[2]- الوابل الصيب، دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، (ص24).

[3]- ابن قيم الجوزية الروح، دار الكتب العلمية - بيروت - 1395هـ/1975م – (ص:257).

[4]- الحسين آيت سعيد، "المرقون حول الوسطية (ص: 29).

[5]- سورة البقرة: 143

[6]- البخاري، كتاب التَّفسير، تفسير سورة البقرة، باب: {وكذلك جعلناكم..}، رقم الحديث: 4217.

[7]- الامام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (2 /8).

[8]- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (99/1).

[9]- ابن كثير- تفسير القرآن العظيم، (258/1).

[10]- البقرة: 238

[11]- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم، (258/1).

[12]- صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، رقم الحديث: 4259، وصحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، رقم الحديث: 628.

[13]- المائدة: 89

[14]- الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (253/2).

[15]- سورة القلم: 28

[16]- الإمام الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (3/8).

[17]- الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (241/18).

[18]- الالوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (32/29).

[19]- واغلبها ظروف تاريخية أنجبتها فترة صراع اديولوجي

[20]- سورة الحج الآية: 8

[21]- سورة النحل:125

[22]- سورة العنكبوت:46

[23]- رواه البخاري ومسلم

[24]- سورة الإسراء، الآية 70.

[25]- رواه البخاري ومسلم.

[26]- نهج البلاغة، تحقيق د. صبحي الصالح، بيروت، 1967م، ص 427.

[27]- سورة المائدة، الآية 48.

[28]- سورة الكهف، الآية29.

[29]- سورة الحج، الآية 17.

[30]- سورة الزمر،الآية 46.

[31]- انظر. علي حرب: العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، ص120.

[32]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مكتبة عمار، ط1، القاهرة، 1971م، ص209، وكذلك: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، 1979. ص45.

[33]- سورة الفرقان، الآية 63.

[34]- سورة المائدة، الآية 16.

35- : د. صبحي محمصاني: القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1982، ص194

36- سورة البقرة، الآية .216

37- سورة البقرة، الآية 190.

38- سورة القصص، الآية 83.

39- د.مصطفى ديب البغا: نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع، دار الفكر، ط1، دمشق، بيروت، 1418 هـ/ 1997م، ص ؟.

40- سورة الأنفال، الآية 61.

41- د.مصطفى ديب البغا : نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع، دار الفكر، ط1، دمشق، بيروت، 1418 هـ/ 1997م، ص ؟.

42- سورة البقرة، الآية 208.

43- سورة الأحزاب، الآية 25.

44- سورة يونس، الآية 99.

45- د. مصطفى ديب البغا، المرجع السابق، ص333-332.

46- سورة الحجرات، الآية 13.

47- سورة آل عمران، الآية 110.

48- انظر: إدريس هاني: حوار الحضارات، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، ص41.

49- صلاح عبد الرزاق: العالم الإسلامي والغرب، دراسة في القانون الدولي الإسلامي، مؤسسة دار الإسلام، لندن، 1423 هـ 2002م، ص237.

50-: جريدة "الشرق الأوسط"، العدد (9245)، لندن في 2004/3/21 م، ص16.

51- مجموعة من الباحثين: صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم، سلسلة كتاب المعرفة، ط1، الرياض، 2003م.

52- انظر عمار طالبي – أين الحكمة في هذا العصر مجلة الحكمة العدد الأول 2009 الجزائر

53- Paradigm

54- Mind, The Philosophical Review

55- انظر عمار طالبي – أين الحكمة في هذا العصر مجلة الحكمة العدد الأول 2009 الجزائر

56- تصدر عن المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية بالجزائر.

57- عامر رخيلة " البعد الإنساني في الثورة الجزائرية" مجلة المصادر العدد 7 نوفمبر2002 المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة لوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

58- إملاء الوصايات على تدريس التاريخ العربي الإسلامي ومقرراته ومناهجه وبالتالي فإن "السيادة" في تدريس التاريخ ستتعرض بدورها لاختراق كبير، فتتدخل القوى المهيمنة وعملاؤها لفرض مقررات بعينها.

59- إبراهيم القادري بوتشيش، مستقبل كتابة التاريخ العربي في ظل العولمة الثقافية. www.fikrwanakd.aljabiriabed.com

60- يقصد بها الأطراف التي اختارت التطبيع

61- محي الدين اللاذقاني: الأصوليات ليست العقبة الوحيدة أمام الحوار الحضاري، "جريدة "الشرق الأوسط"، في 2004/1/2م، ص19.

62- وما أصوات " أرنولد توبيني" و"كارل مانهايم" و"غارودي" و"تشومسكي" و"ميشيل فوكو" و"جاك دريدا" وغيرهم إلاّ أمثلة لتلكم الأصوات.

63- في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب

64- هاشم صالح في عرضه لكتاب: "العرب أو الشرقيون" لجون تولان، جريدة "الشرق الأوسط"، في 2004/2/8م، ص11.

65- سورة المائدة، الآية 82.